ثاني اثنين

تأملات في دلالة آية الغار على فضل أبي بكر الصدّيق ﵁

د. طه حامد

اختصره وهذّبه مركز البحوث والدراسات

فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

ردمك :

رقم الإيداع :
ردمك :

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م
مبرة الآل والأصحاب

هاتف : ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس : ٢٢٥٦٠٣٤٦
ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت
E-mail: almabarrh@gmail.com
www.almabarrah.net

قال أبـو محـجن الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وسُـمّيت صديقاً وكـل مـهاجر سواك يُسّمى باسمه غيـر منكر

سبقت إلى الإسلام واللَّه شاهـد وكنت جليساً في العريش المشهد

الفهرس

❋ ❋ ❋


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، خاتم الأنبياء المرسلين وقائد الغر المحجلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فقد بعث اللَّه نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالهدى والنور واصطفى له أصحاباً حملوا رسالته وبلغوا دعوته فكانوا شموساً للدنيا وعافية للناس، يهدون الحائرين ويعلمون الجاهلين، وصدق اللَّه القائل في محكم التنزيل وهو أصدق القائلين: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وكان أفضل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحبهم إليه وأقربهم إلى قلبه الصِّدِّيق أبا بكر، معدن الهدى والتصديق، الرفيق في الغار والصاحب في الأسفار وفي جميع الأطوار، الملقب بالعتيق والمؤيد من اللَّه بالتوفيق، المخصوص في الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار وعامة الأبرار وبقي له شرفه على كرِّ الأعصار حيث يقول عالم الأسرار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

فقد جمع الصِّدِّيق كثيراً من الفضائل وحاز كثيراً من المناقب، ونزلت فيه

آيات تُتلى إلى يوم الدين. منها: آيات نزلت فيه بخاصة وكانت إرشاداً للأمة بعامة.

وآيات نزلت فيه وفي غيره من الصحابة إلا أن نصيبه فيها كان أكبر من غيره وحظه منها كان أوفر مما عداه.

وقد خصصنا هذا الكتيب لبحث إحدى أعظم فضائل الصديق رضي الله عنه ، وهي آية الغار واختصاصه بصحبة رسول اللّه ﷺ في أخطر وأدق مراحل الدعوة، وفي ذورة تسلط الأعداء على نبيه ﷺ ، وكان حقيقاً بالفضل كله والمجد كله رضي الله عنه .

هذا ونسأل اللّه الإخلاص والتوفيق وأن يلحقنا بالنبي ﷺ والصِّدّيق رضي الله عنه فمن سار على دربهما نال العز والتوفيق.

مبرة الآل والأصحاب

تمهيد
أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه نفحة طيبة وسيرة عطرة

اسمه ونسبه رضي الله عنه:

من نافلة القول: إن أبا بكر رضي الله عنه وإخوانه من العشرة – من ذرية عدنان، وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فهو قرشي تيمي، وقد اختلف في اسمه على قولين: عبد اللَّه وعتيق، ولعل الأخير لقبه وليس اسمه.

قال ابن عساكر: «عبد اللَّه ويقال: عتيق بن عثمان بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعيد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي»[(1)].

وهو: أبو بكر الصِّدِّيق، واسمه عبد اللَّه بن أبي قحافة واسمه عثمان ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وقيل: إن اسمه كان عبد الكعبة فسماه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عبد اللَّه[(2)].

أبوه:

عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وكنيته أبو قحافة.

---

(1) تاريخ دمشق: ابن عساكر(30/ 3).
(2) أسد الغابة: ابن الأثير(3/ 205).

أمُّه:

أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة[١].

وقيل: اسمها ليلى بنت صخر، وذكر ابن الأثير أنها ابنة عم أبي قحافة[٢].

مولده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هناك أكثر من رأي في مولد الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والراجح أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولد بعد عام الفيل بثلاث سنوات[٣].

وواضح من تعريف الصِّدِّيق السابق عمق الاتصال النسبي بينه وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حيث يلتقي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من ناحية أبيه وأمه في جده مُرَّة.

زوجاته وأولاده:

تزوج أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أربع نساء أنجبن له ستة أولاد: ثلاثة من الذكور وثلاث من الإناث وهن على التوالي:

١ - **قتيلة بنت عبد العزى**[٤]، وأنجبت له: عبد اللَّه وأسماء ذات النطاقين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

---

(١) راجع: الطبقات الكبرى: محمد بن سعد،(٣/ ١٦٩)- طبقات خليفة: خليفة بن خياط، ص(٤٨).

(٢) أسد الغابة(٣/ ٢٠٥).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد(٣/ ٢٠٢).

(٤) اختلف في إسلامها، انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٦٩) (٨/ ٢٤٩).

٢- **أم رومان بنت عامر** رضي الله عنها ، وأنجبت له عبد الرحمن وعائشة رضي الله عنهما .

٣- **أسماء بنت عميس** رضي الله عنها ، وأنجبت له محمد بن أبي بكر رحمه الله .

٤-**حبيبة بنت خارجة** رضي الله عنها من بني الحارث بن الخزرج: وكانت بها نسأ[١] فلما توفي أبو بكر ولدت بعده، وأنجبت له أم كلثوم[٢].

وننتهي من هذا إلى بيان أن الصِّدِّيق رضي الله عنه كان له أربع زوجات أنجبن له ستة أولاد: ثلاثة من الذكور، وثلاث من الإناث.

فأما عائشة فتزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأما أسماء فتزوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه وأما أم كلثوم فتزوجها طلحة بن عبيد اللَّه رضي الله عنه .

كنيته رضي الله عنه :

وقد اشتهر الصِّدِّيق رضي الله عنه بكنية أبي بكر وصارت ملازمة له، وأضحت عنواناً عليه، وأبو بكر مأخوذة من البكر وهو الفتى من الإبل، وهو بمنزلة الغلام من الناس، والأنثى بكرة[٣] والجمع بكارة وأبكر.

ألقابه رضي الله عنه :

عُرف الصِّدِّيق رضي الله عنه أيضاً ببعض الألقاب التي أُطلقت عليه إما في صغره وحداثة سنه، وإما بعد إسلامه وملازمته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن هذه الألقاب:

---

(١) النسأ للمرأة حين يتأخر حيضها عن وقته فيرجى حبلها. انظر: الصحاح للجوهري(١/ ٧٦).

(٢) راجع: الطبقات الكبرى(٣/ ١٦٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير(١/ ١٤٩)- مختار الصحاح: الرازي(٣٩).

١- الصِّدِّيق:

وهذا اللقب هو أشهر ألقاب أبي بكر رضي الله عنه على الإطلاق، وقد اشتهر إضافته إلى كنيته فيقال: أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

وقد لُقِّب بالصِّدِّيق رضي الله عنه لكثرة تصديقه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، **وفي هذا تروي أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها، فتقول: لما أسري بالنبي إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناسُ ممن كان آمنوا به وصدَّقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك فقد صدق. قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟!! قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوةٍ أو روحةٍ، فلذلك سمي أبو بكر الصِّدِّيق[١].

٢- العتيق:

وهو لقب عرف به الصِّدِّيق، وقد ذكر ابن حجر في الفتح بعض الأسباب التي من أجلها أطلق على أبي بكر عتيق، وعدَّ منها: لأنه ليس في نسبه ما يعاب به، أو لقدمه في الخير وسبقه إلى الإسلام، أو لحسنه، أو لأن أمه كان لا يعيش لها ولد فلما ولد استقبلت به البيت فقالت: اللَّهم هذا عتيقك من

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل: باب الإسراء، ح(٦٥٢)، والحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة، باب أبو بكر الصِّدِّيق، ح(٤٤٠٧). وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعلق الذهبي في التلخيص وقال: صحيح. وأبو نعيم في معرفة الصحابة(١/ ٨٢)، ح(٦٢).

الموت، أو لأنَّ النبي ﷺ بشره بأن اللَّه أعتقه من النار[١].

٣- خليفة رسول اللَّه ﷺ:

الخلافة في اللغة: مأخوذة من الفعل خلف، وفي لسان العرب: «استخلف فلاناً من فلان: جعله مكانه، وخلف فلان فلاناً إذا كان خليفته، يقال: خلفه في قومه خلافة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وخلفتُه أيضاً إذا جئت بعده، استخلفته أنا: جعلته خليفتي، واستخلَفَه: جعله خليفة»[٢]. والخليفة: من استُخلف مكان مَن قبله، ويقوم مقامه[٣].

وهذا اللقب أُطلق على الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة النبي ﷺ.

صفته الخَلقية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بداية: وقبل بيان صفة أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخَلقية التي خلقه اللَّه عليها، فلا بد من بيان شيء قبله، وهو أن حديثنا عن هذه المسألة في الصِّدِّيق وغيره من إخوانه من العشرة المبشرين لا يتعدى الناحية الوصفية الواردة في السنن والتواريخ وذلك من باب إعطاء القارئ صورة واضحة عن الشخصية المتحدَّث عنها، وتقريبها إلى ذهنه تقريباً يجعله وكأنه يراها، وليس من باب أن هذه الصفات لها دور بذاتها في استحقاق

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني(٧/ ٧).
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٩/ ٨٤).
(٣) الخليل بن أحمد: العين(٤/ ٢٦٨)، دار الرشيد -العراق، ط١، سنة ١٩٨١م.

صاحبها أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة؛ لأنه كما هو واضح للجميع أن معيار التفاضل في الإسلام إنما هو بالتقوى والإيمان لا بالصور والأشكال، ولا بالأحساب والأنساب. فاللَّه عز وجل لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى الأعمال والتقوى.

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[١].

وعليه فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن ليتصدر قائمة العشرة لبنيته الجسدية ولا لجمال هيئته، وإنما بإيمانٍ وَقَرَ في قلبه، ويقينٍ استقرَّ في فؤاده، وإخلاصٍ تحكَّم في مسار حياته، وعملٍ صدَّق هذا كله وأظهره.

ونعود إلى حديثنا عن صفة الصِّدِّيق الخَلقية، فقد كان رضي الله عنه رجلًا أبيض نحيفاً خفيف العارضين معروق الوجه قليل اللحم غائر العينين ناتئ الجبهة يخضب بالحناء والكتم[٢].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، ح(٢٥٦٤).

(٢) تاريخ دمشق: ابن عساكر(٣٠/ ١٩) وخفيف العارضين: يُراد به خفة شعر عارضيه، وهما صفحتا الخدَّين (لسان العرب:٧/ ١٨١). ومعروق الوجه: قليل لحم الوجه (مقاييس اللغة: ابن فارس(٤/ ٢٨٧) والكتم: هو نبات يُختضب به. انظر: مقاييس اللغة(٥/ ١٥٧).

تجليات شخصية الصِّدِّيق من خلال آية الغار

لقد نزلت في مناقب الصِّدِّيق رضي الله عنه آيات كثيرة، منها آيات عامة يشترك فيها جميع الصحابة، ومنها ما هي خاصة بالصِّدِّيق لم يشاركه فيها أحد منهم.

وحتى الآيات العامة- إذا تأملتها- تجد لأبي بكر فيها من النصيب ما ليس لأحدٍ غيره. فهي من هذه الناحية تندرج في خصوصياته، لا من حيث النوع ولكن من حيث الكيف.

ويأتي على رأس قائمة هذه الآيات «آية الغار»، وهي التي سنتناولها بالتفصيل، ونسأل اللَّه العظيم التوفيق والسداد.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

لقد نزلت هذه الآية العظيمة في حق رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وحق الصِّدِّيق رضي الله عنه، لم يشركهما في شرفها وفضلها أحد من الأمة أو الصحابة رضي الله عنهم، وفيها من الفضائل التي اختص بها أبو بكر الصِّدِّيق دون غيره من الأصحاب ما لا يحصى.

وقد تجلى للصديق رضي الله عنه في هذه الآية أربع خصائص هي:

١- تفرُّده بصفة «صاحبه».

٢- تفرُّده بالمعيَّة الخاصة.

٣- تفرُّده بوصف «ثاني اثنين».

٤- تفرُّده بمواساة النبي صلى الله عليه وآله وسلم له.

❊ ❊ ❊

تجليات خصائص الصِّدِّيق في آية الغار:

* التجلي الأول: تفرده بصفة «صاحبه»:

في الآية الكريمة يتفرد الصِّدِّيق بصفة الصحبة المضافة إلى أشرف مصحوب: رسول اللَّه ﷺ، إذ جاء اللفظ هكذا: «**صاحبه**».

لقد كان لرسول اللَّه ﷺ آلاف الأصحاب، فلم يختر ربنا أحداً منهم يشرفه في القرآن كله بإضافته إلى نبيه ﷺ بهذه التسمية غير أبي بكر! فيا لها من مزية تفرَّد بها! ويا له من شرف تناهى وما انتهى!

إن كل فضيلة تعلقت بالصحبة فأبو بكر أولى بها، وله منها السهم الأوفر لأنه الفائز بلقب الصاحب في القرآن دون بقية الأصحاب.

لو كان لملك من الملوك عشرة وزراء، فأطلق على واحد منهم فقط لقب «وزير الملك»، وكتب في ذلك مرسوماً ملكياً وأعلنه على الملأ، فإن الناس جميعاً سيعرفون أن هذا الوزير هو المقدَّم على بقية الوزراء، وإلا لما أفرد هذا الوزير من بينهم بهذا اللقب مع أنهم جميعاً وزراؤه.

ومن هنا جاءت أفضلية الصِّدِّيق على بقية الأصحاب- بمن فيهم عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم -لأنه المختص من بينهم في القرآن بلقب صاحب النبي ﷺ، فمن هو الأولى من صاحب النبي ﷺ بمنصب الإمامة والخلافة؟! فليس عبثاً أن يوفق اللَّه المسلمين فيخصون الصِّدِّيق بلقب خليفة رسول اللَّه ﷺ فلم يُطلَق على أحدٍ غيره.

* حقيقة هذه الصحبة:

«صاحبه» قبل الإسلام وبعده وفي حياته ومماته:

تفرد أبو بكر الصِّدِّيق بصحبة النبي ﷺ قبل الإسلام، حتى صارت قريش تطلق عليه وعلى محمد لقب «**صاحبك**»، فإذا قالوا لأحدهما: «**إن صاحبك كذا وكذا**» لا ينصرف الذهن إلا إلى الآخر! وجاء القرآن شاهداً ومؤكداً إذ أطلق هذا اللفظ «**صاحبه**» مضافاً إلى النبي ﷺ دون تصريح باسم أبي بكر، ولا قرينة لفظية تميزه أو تخصصه، ومع ذلك لم يفهم أحد أو يدّع أن المقصود به أحداً غيره!

وما ذلك إلا لأن هذا اللقب أو اللفظ قد صار علماً على أبي بكر وحده، فلا يحتاج معه إلى اسمه الصريح أو قرينة أخرى تدل عليه.

كان أبو بكر قبل الإسلام صفياً لرسول اللَّه ﷺ قبل البعثة، واستمرا على هذه الصحبة بعد الإسلام إلى يوم وفاته ﷺ، ثم استمرا متجاورين بعد مماتهما إلى اليوم!

تأمل ماذا قالت قريش لأبي بكر يوم صدع النبي ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام، قالت: لقد جُنَّ «**صاحبك**»، وصبيحة الإسراء قالوا له: اسمع إلى ما يقول «**صاحبك**»[(١)].

ولما عزم على أن يهاجر قال له النبي ﷺ: على رسلك يا أبا بكر لعل اللَّه يجعل لك «**صاحباً**». حتى إذا جاءه ليخبره أن اللَّه قد أذن له في الهجرة قال: «**الصحبة**». يا رسول اللَّه! قال ﷺ: «**الصحبة**»[(٢)]. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٥) حديث (٤٤٠٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٠٥) حديث (٣٠٦).
(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى متاعاً أو دابة ح(٢١٣٨).

يبكي حين أذن له رسول اللّه ﷺ في «**صحبته**»[١].

ألا ما أعظم منزلة هذه «**الصحبة**»**!** منزلة تبكي لها الرجال دموعاً**!** إنها شرف لم يؤثِر به الرسول ﷺ أحداً سوى «**صاحبه**» الذي اختار «**صحبته**».

إنها صحبة المصير الواحد في أخطر رحلة وأحرج موقف يخلده اللّه تعالى قرآناً يتلى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الصحبة عارضة ولازمة:

الصحبة صحبتان:

١- **صحبة عارضة** لسبب تزول بزواله، كصحبة يوسف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لصاحبي السجن. إنها صحبة فرضها السجن الذي جمعهم فما أن خرجا حتى نسياه وما ذكره أحدهما إلا بعد بضع سنين! وصحبة الرجلين المذكورين في سورة «الكهف» إذ جمعتهما التجارة، وكان المؤمن ناصحاً لصاحبه مخلصاً في نصيحته، فلم يداهنه على كفره، بل بيَّن له حقيقة حاله، ودعاه إلى الإيمان بصراحة ووضوح. وهذا هو الواجب في حقه، وهو خير- ألف مرة - من آخر يصحب كافراً طيلة حياته فلا ينصحه ولا يدعوه إلى ترك ما هو عليه، وتستمر الصحبة بينهما إلى الممات وهو يجامله ويداريه! كيف يتصور مثل هذا من رسول اللّه ﷺ مع «**صاحبه**»!! ألا ساءت الظنون وانتكست القلوب!

وكما فعل الرجل المؤمن مع صاحبه الكافر من الدعوة والنصيحة، كذلك فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحبيه إذ قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ

(١) رواه ابن إسحق كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٤)، ومن طريقه الطبري في تاريخه.

خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩ - ٤٠].

٢- **صحبة لازمة** لاستنادها إلى سبب دائم لا يزول، كصحبة رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه. ولو كانت كصحبة الرجلين في سورة الكهف كما يقول المتهوكون، لانقطعت وما دامت إلى الأبد. ثم كيف يُساء الظن برسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم! أيتخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم له صاحباً ثم لا يكون هو خير الأصحاب! ألا يحسن صلى الله عليه وآله وسلم الاختيار؟ أم أنه اختاره لأسباب دنيوية عارضة؟ فكيف دامت صحبتهما طيلة هذه المدة وهو لا ينصحه ولا يردعه! أرأيت لو أن رجلًا مصاحباً لرجلٍ صحبة دامت سنين طويلة ثم تبين لك أن مصالح دنيوية جمعت بينهما، وأن الرجل الثاني كان سيئاً في ذاته وأخلاقه ونواياه دون أن يكون ذلك السوء سبباً دافعاً لصاحبه أن يردعه أو ينصحه أو- على الأقل - يتركه، ألا تشك في صلاح الأول؟

أهكذا الظن بصفوة الرسل وخيرة الخلق وهو القائل: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1] ؟! ولا شك أن الصحبة العارضة ليست هي المقصودة بالنهي.

لقد كانت صحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لـ «**صاحبه**» صحبة الدين والغايات العظيمة السامية. ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لوكنت متخذاً خليلًا لاتخذت أبا بكر

(١) رواه الإمام أحمد (١١٣٥٥) وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، والدارمي (٢٠٥٧)، وابن حبان (٥٥٤)، وحسَّنه الشيخ الألباني.

خليلًا»[١] . وكذلك هي صحبة المشابهة والمشاكلة النفسية والأخلاقية والفكرية - ولا بد -، يقول النبي ﷺ : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[٢].

ولذلك اختاره رفيقاً له في الهجرة و«صاحباً» يؤنس وحدته ويبدد وحشته، ولولا هذه المشابهة والمشاكلة، والراحة والميول النفسية المتبادلة لما اختار صحبته في تلك الرحلة الخطرة الموحشة.

إن المسافر سفراً عادياً يستغرق ساعة أو ساعتين لا يطيق أن يصحب في سفره القصير هذا إلا من ترتاح إليه نفسه ويطمئن إليه فؤاده إليه، فكيف برحلة شاقة عصيبة منها أيام ثلاثة في غار موحش في جبل منقطع عن العمران!

إنها صحبة رجل الملمات والمهمات الصعبة، كما هي صحبة الإنسان للإنسان الذي ترتاح إليه النفس وتأوي إليه آمنة مطمئنة، وإلا فإن الأمر كما قال الشاعر العربي:

وقائلٍ كيفَ تفارقتُما لم يكُ من شَكلي ففارقْتُهُ

فقلتُ قولًا فيهِ إنصافُ والناسُ أشكالٌ وآلافُ

ولو لم يكن أبو بكر رضي الله عنه من شكل النبي ﷺ لما كانت صحبتهما صحبة العمر كله، بل صحبة استفرغت الحياة.. ثم اتصلت بعد الممات!

---

(١) رواه البخاري كتاب أبواب المساجد، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصِّدِّيق (٢٣٨٢)، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة(٣٣٣٦)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨).

*** آثار الصحبة وتجلياتها:**

للصحبة آثارها في أخلاق الأصحاب وسلوكهم نتيجة تفاعل الصاحب مع صاحبه، وتأثره بأخلاقه وتصرفاته، وكلما كانت الصحبة أصدق، والنفس أصلح وأكثر استعداداً للتأثر، تجلت أخلاق الصاحب في صاحبه أكثر، حتى يمكن أن يكون صورة أخرى له تعكس ما في صورة الأصل من قسمات وملامح، لأن الأثر يعتمد على قوة المؤثر، وعلى مدى صلاحية المحل للتأثر.

يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(١).

ويقول الشاعر العربي القديم:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

برزت آثار صحبة الصِّدِّيق رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم واضحة المعالم في علمه وإيمانه، وفي سلوكه وأخلاقه. وبلغت معالم هذه الآثار من البروز والوضوح مبلغاً يشكل في حد ذاته دليلًا قاطعاً على صدق هذه الصحبة، وقوة عراها، وسمو مقاصدها، وعلو منزلتها.

*** معالم تجلي آثار الصحبة:**

وسأتكلم- بإيجاز- عن معلمين من معالم هذه الآثار: المعلم الأول: تجلي هذه الآثار في علم الصِّدِّيق وإيمانه. والثاني: تجليها في أخلاقه وسلوكه.

---

(١) رواه أحمد(٨٠١٥) وأبو داود(٤٨٣٣) والترمذي(٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب. وحسَّنه الشيخ الألباني.

المعلم الأول: تجلي أثر «الصحبة» في عِلم الصِّدِّيق وإيمانه:

* تقديم النبي ﷺ الصِّدِّيق في الصلاة:

كان أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أعلم الصحابة. ويشهد لهذا أن النبي ﷺ قدمه ليصلي بالناس في مرض موته، وهذا دليل جلي على أن النبي ﷺ كان يراه أعلم الصحابة وأقرأهم لكتاب اللَّه تعالى، ولولا هذه «الأعلمية» لما قدمه عليهم وفيهم خيرة السابقين الأولين، كعمر الفاروق، وعثمان ذي النورين، وأبي عبيدة ابن الجراح، وعلي، وطلحة، وابن مسعود، وأُبي بن كعب، وأمثالهم رضي الله عنهم .

وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب اللَّه»[1]. فأبو بكر هو الأقرأ - بين الصحابة طراً - لكتاب اللَّه بشهادة النبي ﷺ وتزكيته العملية، وكفى بذلك شهادة وتزكية!

والأقرأ في لغة النبي ﷺ تعني الأعلم، فإنهم كانوا يسمون العلماء أو الفقهاء بـ«القراء».

مظاهر تجلي علم الصِّدِّيق:

وقد تجلى علم الصِّدِّيق رضي الله عنه في المواقف الحرجة التي تذهب بألباب الحكماء، ويحتار عندها الحلماء! وكان لذلك مظاهر أبرزها ثلاثة هي:

المظهر الأول: موقفه من الاختلاف في وفاة النبي ﷺ:

فمن تجليات علم الصِّدِّيق التي بَزَّ فيها الأقران: ما كان يوم وفاة النبي ﷺ

---

(١) رواه مسلم(٦٧٣) وغيره.

وقد اختلفوا في موته: هل مات حقاً أم لا؟ وكانوا مضطربين مذهولين لا يعرفون كيف يعالجون الموقف، وقد غص المسجد بالناس وعمر بن الخطاب يلوح بسيفه قد طاش عقله من الهول يقول: «واللَّه ما مات رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم»[1]!

الكل في حيرة وليس من منقذ!

حتى إذا جاء كبيرهم وإمامهم رجع كل شيء إلى مكانه، وانتظم عقد أمورهم كأنهم كانوا معه على ميعاد! هدأت الأرواح وخشعت الأصوات واشرأبت الأعناق، وتعلقت الأبصار بهذا الذي ارتقى منبر رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، وأصخت الأسماع تتلهف إلى سماع ما يقول ويقرر ويحكم فيفصل!

كلمة واحدة وآية واحدة:

وبكلمة واحدة وآية واحدة أزال الاضطراب وعالج الموقف!

أما الكلمة..

فقوله رضي الله عنه: «أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات!! ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت».

وأما الآية....

فقوله جل جلاله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] تلاها عليهم فإذا بهم يرددونها خلفه كأنها

---

(١) رواه البخاري(٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نزلت لتوها، أو كأنهم لم يسمعوا بها من قبل!!

يقول عمر: «واللَّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض»[١].

اختيار الصِّدِّيق للآية دليل على عظيم فقهه ودقة نظره:

إن اختيار أبي بكر رضي الله عنه لهذه الآية في هذا الموقف دليل على عظيم فقهه وعلمه، ودقة نظره وبعد غوره، إنها الآية التي نزلت- قبل بضع سنين- علاجاً لموقف مشابه تعرَّض له الأصحاب في «أُحُد» يوم أُشيع أن محمداً قد قتل! فحصل ما حصل من الاضطراب - على ما هو مفصل في الكتاب والسيرة - فنزلت الآية تعالج هذا الخلل الذي تكرر يوم مات محمد صلى الله عليه وآله وسلم حقاً؛ فعالج الصِّدِّيق الداء نفسه بالدواء نفسه فكان الشفاء التام بإذن اللَّه، وتجاوز الصحابة الموقف حين سمعوا الآية تتلى عليهم فتذكروا ما حصل لهم يوم أحد، فكانت استجابتهم سريعة، استفادةً من تجربة سابقة مشابهة أعادها إلى أذهانهم ذكاء الصِّدِّيق حية حاضرة حين طرق أسماعهم بتلك الآية العظيمة الباهرة، والمؤمن «لا يلدغ من جحر مرتين»[٢]!

لقد كان عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم يحفظون الآية، ويرون الخلل، ويعيشون الموقف، فلماذا لم يرتقِ واحد منهم المنبر ليتلو الآية، ويتكلم بما يناسب المقام، لتلتئم الأمور وتستقر الحال؟

---

(١) رواه البخاري(٤٤٥٤).

(٢) متفق عليه. رواه البخاري(٦١٣٣)، ومسلم(٢٩٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

لم يكن واحد منهم هو صاحب الموقف، الكل يعلم- أو يحس- أنه «ليس لها» وأبو بكر في الوجود، فهم ينتظرونه كما ينتظر أفراد العائلة كبيرهم الغائب، ويترقبون مجيئه عند موت والدهم، فلا يجرؤ أحد على حسم الأمور والبتّ فيها دونه.

عاش للأمة:

وحين تستعيد الموقف تجد أن الكل عاش عواطفه وأحاسيسه الخاصة وعبر عنها كما يشاء، إلا أبا بكر! فإنه كتم عواطفه وكانت أرقها، وأحاسيسه وكانت أرهفها، وانفعالاته وكانت في أوج ثورانها!

إن الفقيد «صاحبه»!

لقد تصرف كما يتصرف كبير العائلة عندما تفقد ربها، فيتصبر ويتجمل ويتظاهر بالجلد، وإن كان أكثرهم تأثراً وأعظمهم مصيبة! لماذا؟ حتى لا تنهار العائلة.

كل فرد منهم يعيش لنفسه وعواطفه: هذا يبكي.. وهذا يصرخ..

وذلك قاعد منزوٍ.. وغيره يلطم، وآخر يهتف.. إلا كبيرهم؛ إنه يعيش لهم فهو لا ينفعل.. ولا يفعل مثلهم!

وكذلك فعل أبو بكر!

لقد عاش ساعتها للأمة كي لا تنهار، رغم أن قلبه كاد يتمزق حزناً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو رأيته لوجدته كالجبال **تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب**»! ولولا ذلك لاستمر الاضطراب، واشتدت دوامة الحزن فعصفت بالأمة فلم تفق إلا على الأنصار وقد بايعوا وانفردوا بالأمر

ووقعت الواقعة!

رجل المواقف الصعبة:

لكن أبا بكر - وأبا بكر لا غيره - حسم الأمرين معاً، ولو تأخر حسمُ الأمر الأول لما حسم الأمر الثاني. . ولِصالحِ المهاجرين.

المظهر الثاني: موقفه في البيعة:

فما إن انتهى أبو بكر من علاج الموقف العصيب الأول، حتى سارع- وقد جاءه الخبر بأن إخوانهم الأنصار قد اجتمعوا ليبايعوا سعد بن عبادة رضي الله عنه - ليعالج موقفاً عصيباً قد استجد لا يقل عن سابقه!

وكان لعلمه رضي الله عنه بالنفوس وفن التعامل معها، والقلوب وكيف يُتمكن منها، وعلمه بالشرع أصولًا وفروعاً، ومعرفته بكيفية صياغة القول وإلقاء الخطاب، ولسابقته و«**صحبته**» الدور الفاعل في حسم أكبر مشكلة تواجه الدول الناشئة وتهددها بالزوال أو الانقسام: ألا وهي ولاية الأمر بعد المؤسِّس الذي غادر الحياة. وكان مما قاله في السقيفة المباركة: «يامعشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلًا إلا وأنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش، هم أوسط العرب داراً ونسباً، لقد سماكم اللّه في كتابه بالمفلحين وسمانا بالصادقين، واللّه يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، وإني رضيت لكم أحد هذين الرجلين، وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، لكن عمر حسم الأمر فقام، وقال لأبي بكر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول اللّه، وأخذ بيده

فبايعه وبايعه الناس[١].

لولا الصِّدِّيق لما وصلت الخلافة إلى علي:

وعادت الأمور إلى نصابها فكانت الخلافة في المهاجرين، والوزارة في الأنصار، وصارت سنة ماضية لا يعترض عليها أحد، فلولا أبو بكر لكانت الخلافة في الأنصار- هذا إذا بقيت خلافة- ولما وصلت إلى عمر، ولا كان علي في يوم من الأيام خليفة على المسلمين! فجزاه اللَّه عن علي وعمر وعثمان وعموم المهاجرين وجميع الأمة خير الجزاء.

الرجال بالمواقف لا بالعواطف:

إن الرجال لا تقاس بالانفعال والعواطف، وإنما بالفعال والمواقف، ولولا موقف أبي بكر عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما استفادت الأمة مثقال جناح بعوضة من عواطف عمر ودموع علي، ولكانت البيعة في الأنصار، ولاضطربت الأمور واختلف الناس! لا سيما وأن أكثر القبائل أعلنت العصيان ووقع بعضها في الارتداد، وتململ الروم واستغل الفرس الفرصة فعبروا الخليج، ودخلت جيوشهم البحرين وانضمت إلى تحشدات المرتدين.

ولولا أن منَّ اللَّه على الأمة بأبي بكر لتصدَّع بناؤها، وانهارت وحدتها، وصارت طعمة للطامعين، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يقبل رأسه: «لولا أنت لهلكنا»[٢]. وقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ذات غداة بعد طلوع الشمس

---

(١) رواه البخاري(٣٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة ص(٦٨).

فقال: «رأيت قبيل الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين، فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازين فهي التي تزِنون بها، فوُضِعتُ في كفة ووضِعتْ أمتي في كفة فوزِنتُ بهم فرجحتُ، ثم جيء بأبي بكر فوُزِن بهم فوَزَن، ثم جيء بعمر فوُزِن فوَزَن، ثم جيء بعثمان فوُزِن بهم، ثم رُفعت»[١].

نعم! لقد كانت الأمة يومها أبا بكر، وكان أبو بكر هو الأمة، فلو ضعف أو تردد، أو التبست عليه الأمور لانهارت وتفتتت وصارت في خبر كان!

المظهر الثالث: قتال المرتدين ومانعي الزكاة:

والموقف الثالث العويص فقهياً والعصيب عملياً وعسكرياً - الذي تجلى فيه علم أبي بكر كالبدر يجلو الليلة الظلماء، وإيمانه كالجبال التي لا تهزها الأعاصير- هو يوم أن عارضه الصحابة في قتال مانعي الزكاة! فقد قال له عمر رضي الله عنه: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه فمن قال: لا إله إلا اللَّه فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على اللَّه»؟ فقال أبو بكر: واللَّه لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللَّه لو منعوني عَناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم على منعها[٢]. ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥٤٦٩)، وعبد بن حميد (٨٥٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٩٦٠) وضعف الشيخ شعيب الأرناؤوط إسناده في تعليقه على مسند أحمد، وضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة(٦٤٨٦).

(٢) متفق عليه رواه البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم(٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لقد استند أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النصوص القرآنية، وفهم من الحديث النبوي ما لم يفهمه من وقف عند ظاهره، فغاص فيه واستخرج من جواهره وإن لم تكن قريبة المنال!

إن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من عظماء المجتهدين الذين تميزوا في صدر الأمة، وهو محدث مسدد بشهادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقد احتج بحديث حسبه له فإذا به يكون عليه! فيا للَّه أبو بكر من رجل يقلب حجة عالم مجتهد كعمر فإذا بها ترتد عليه وقد كانت سلاحاً في يديه!

نظر بعيد في الدين والسياسة:

لقد كان الصِّدِّيق – وهو يتخذ قراره العسكري بقتال مانعي الزكاة، وعدم التفريق بينهم وبين المرتدين – بعيد النظر من الناحيتين الدينية والسياسية!

إن التساهل في ترك ركن من أركان الإسلام يؤدي- ولا بد- إلى ترك ركن آخر احتجاجاً بالأول، وهكذا سيأتي جيل يترك الصيام، وآخر يترك الصلاة، ورابع يترك الحج والجهاد الخ، فإذا بالدين قد انهدم، فلا بد من سدِّ باب الفتنة، وبابها إقرارهم على ترك أداء الزكاة، هذا من الناحية الدينية.

أما من الناحية السياسية فإن للزكاة جانباً سياسياً لا يخفى على رجال الحكم والسياسة.

إن لكل حكومة على رعيتها التزاماً مالياً اعترافاً بنظامها السياسي، وإن الامتناع عن أدائه إعلان عن العصيان والتمرد على النظام وعدم الاعتراف به، ولا اعتماد على رعية أو شعب إذا كانت علاقته مع حكومته على هذه الصورة.

لقد كان الصِّدِّيق - وهو التلميذ النجيب لأعظم حاكم سياسي في التاريخ - يدرك تمام الإدراك أن الامتناع عن أداء الزكاة إعلان عن عدم اعتراف الممتنعين بالنظام السياسي لحكومته، فإذا أقرهم عليه فقدت حكومته هيبتها، وكانت الرعية الممتنعة أكثر جرأة على عصيانه في أمور أخرى، لا سيما الجهاد وقتال الكافرين، وهكذا تنهار الحكومة وتتفكك الدولة، بعد أن انهار الدين وانهدمت أركانه!

لقد أدرك الصِّدِّيق ذلك كله بثاقب نظره، فلم تستفزه المصالح الوقتية القريبة عن المصالح الحقيقية الدائمة، وما ذلك إلا لرسوخ علمه وقوة إيمانه الذي تميز به على بقية الأصحاب، فمن منهم أولى منه بالحكم وإدارة شؤون الخلافة والسياسة؟!

وهكذا استطاع أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أن يقضي على أكبر فتنة عصفت بالأمة؛ فتنة الارتداد والعصيان والحروب الأهلية، ولو فشل في القضاء عليها لانطلقت من عقالها ودمرت كل شيء، يقول ابن مسعود رضي الله عنه : «لقد قمنا بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن منَّ اللَّه علينا بأبي بكر»[1] لكن الأمة - بحكمة أبي بكر وثاقب نظره وعلو همته وشدة عزيمته، وقوة إيمانه ويقينه بربه- خرجت من هذه الفتن سليمة معافاة قوية متحدة، بحيث تمكنت بعد ذلك مباشرة من أن تضرب أكبر إمبراطوريات العالم آنذاك؛ فارس فتدكها وتهدمها، والروم فتقهرها وتهزمها!!

---

(١) رواه البلاذري في فتوح البلدان (١/ ١١٣).

المعلم الثاني: تجلي أثر «الصحبة» في أخلاق الصِّدِّيق وسلوكه:

جاء عن النبي ﷺ أن أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق[١]. فمن فاز منه بالسهم الأوفر كان الأفضل بين الأمة، وأبو بكر الصِّدِّيق أحسن الأمة خلقاً بعد رسول اللَّه ﷺ، ودليلنا القرآن، حيث وصف المولى جل وعلا الصِّدِّيق بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ ومع أن العبرة بعموم اللفظ إلا أن الآية واردة بدءاً في حق الصِّدِّيق وفيها دلالة على امتياز الصِّدِّيق بمحاسن الأخلاق وأرقاها، ولا شك أن التحلية بالكمالات لا تكون إلا بعد الاتصاف بالضروريات والأساسيات.

إن وجود حديقة جميلة تزهو بأجمل أنواع الورود وألوانها، وقد نظمت تنظيماً يخلب الألباب، وفيها من الأطيار والبلابل المغردة ما تطرب له الأسماع، وتأنس إليه الأرواح، لا يتوقع الرائي أن هذا كله تابع لبناية خربة من طين! لا بد من توقع رؤية قصر كبير!

والزينة لا تكون إلا بعد توفر عناصر الجمال، ولا توضع على محل ملوث بالأوساخ، وإلا كانت سفهاً، ولذلك قال اللَّه تعالى يخاطب الصحابة رضي الله عنهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] فالتزيين بعد التحبيب، ولا قيمة للزينة بلا حب، إن الحب أصل والزينة كمال، ووجود الكمال لا يكون إلا بعد وجود الأصل عند العقلاء.

وللأخلاق أصل وقاعدة كما أن لها زينة وكمالًا وحسناً وجمالًا، ولا

---

(١) روى أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق». وصححه الشيخ الألباني: انظر: السلسلة الصحيحية (٢/ ٥٦٣) حديث(٨٧٦).

يطالب بمحاسن الأخلاق وكمالاتها من لم ينته من أصولها وأساسياتها.

والآن نأتي إلى حسن أخلاق الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وجمالها وزينتها وكمالها، وأمام أنظارنا قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حين سئلت عن خلق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقالت: «كان خلقه القرآن»[١]. كذلك كان خلق الصِّدِّيق.

موقفه من مسطح:

كان لأبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قريب اسمه «مسطح» ينفق عليه ويحسن إليه، فلما خاض المنافقون والذين في قلوبهم مرض في أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، خاض مسطح مع الخائضين في عرض أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دون أن يرقب فيه إلًّا ولا يداً.

وأنزل اللَّه جل وعلا - من بعد- براءة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في سورة «النور»، فحلف أبو بكر أن لا يصل مسطحاً ولا ينفق عليه بعد أبداً، ولا نعرف أحداً يمكن أن تسخو نفسه فيستمر بالإنفاق والإحسان إلى من طعن في عرضه وشرفه! اللَّهم إلا إذا بلغ من الدرجات أعلاها في حسن الخلق وكرم النفس، وأسماها في إنكار الذات من أجل عمل الخير للخير نفسه!

كانت هذه الدرجة العالية السامية هي التي أرادها اللَّه تعالى أن تكون زينة وتاجاً على رأس محاسن أخلاق الصِّدِّيق فحببها إليه، وزينها في عينيه، ودعاه إليها بقوله الرفيق الشفيق: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، حديث (١٧٧٣).

وكان جواب أبي بكر رضي الله عنه حين سمع توجيه اللَّه إليه بواسطة رسوله و«صاحبه»: «بلى واللَّه إني لأحب أن يغفر اللَّه لي»[١]. وعاد إلى مسطح يصله وينفق عليه!!

إن هذا الصنيع لا يُوفَّق إليه إلا طراز خاص من المؤمنين يقول اللَّه عنهم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]. وما كان اللَّه ليرضى لـ«صاحب» نبيه صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن يكون من ذلك الطراز، صاحب الحظ العظيم والخلق القويم!

مظاهر تجلي حسن خلق الصِّدِّيق:

وتجلى حسن خلق الصِّدِّيق رضي الله عنه في مظاهر كثيرة أبرزها ثلاثة. وهي:

المظهر الأول: الصدق والتصديق:

يكفيه شهادة على ذلك تفرده بلقب «الصِّدِّيق» من بين الأصحاب، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللَّه صديقاً»[٢].

وقد لقب أبو بكر في الجاهلية - كما لقب محمد صلى الله عليه وآله وسلم - بـ (الصادق) فزاده الإسلام فلقبه بـ «الصِّدِّيق».

إن العرب قوم معروفون بصدق الحديث، يستحيي أحدهم أن يؤثر عنه شيء

---

(١) رواه البخاري كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث (٢٦٦١)، ومسلم كتاب التوبة، باب في حديث الإفك حديث(٧١٩٦).

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب فتح الكذب وحسن الصدق، حديث (٢٦٠٧).

من الكذب، فوجود الصادق بينهم لا يثير الانتباه ما لم يكن صدقه متميزاً، لأن عامتهم صادقون، فأن يفوز في مجتمع الصادقين شخص بلقب «الصادق» دليل على تميزه في الصدق وبلوغه شأواً عالياً فيه، كالبطل المتميز بين الأبطال، والشجاع بين الشجعان! وهذا كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] مع أن كل مؤمن صادق.

وفيه وفي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] .

وفيه نزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨] بتخفيف الصاد وهي قراءة متواترة.

لقد كان هذا التصديق أثراً من آثار صحبته لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فعرفه معرفة الخبير، فكان يسارع إلى تصديقه دون توقف أو تردد في كل شيء مهما كان غريباً! وكان إذا حاججه المنكرون يقول واثقاً مطمئناً: (إن كان قاله فقد صدق)؛ لهذا روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر»(١).

والتصديق إذا بلغ هذه الدرجة فهو أثر من آثار الصدق الفطري الذي طُبعت عليه النفس وجُبل عليه الطبع.

(١) رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٣٤٨) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٤٤). عن ابن عباس رضي الله عنه، ورواه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية (٢/ ٩١).

والصادق لا يدور في نفسه الشك، ولا يتوقع الكذب قط ممن وثق بهم؛ لأنه يرى فيهم نفسه التي ليس فيها إلا الصدق، فيكون حسنُ الظن تعبيراً عن الخير الذي جبلت عليه النفس.

المظهر الثاني: الشجاعة:

لقد كان أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أشجع الناس بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: لم يتردد في موقف، ولم يضطرب أو يفر في معركة، بل كان حيث يكون الخطر أقرب الناس إليه، ولذلك اتخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحباً له في أحرج المواقف وأصعب الظروف، فكان في الغار ثاني اثنين، وفي عريش بدر كذلك، وثبت معه في أحد وحنين- إذ قتل حامل لواء المشركين- وجميع المعارك ودافع عنه في مكة فضرب حتى كاد يموت.

أما موقفه- وقد انفرد بعد «صاحبه» - من المرتدين ومانعي الزكاة، والجزيرة قد انتفضت عليه وكادت قبائلها تغزو المدينة نفسها، فهو الموقف الذي تميد له الشم الرواسي.

وكان أبو بكر الجبل الوحيد الذي ظل راسياً لم تهزه الزلازل! لقد قرر قتال الدنيا مجتمعة مهما كانت الظروف وبلغت التضحيات وكانت النتائج!

جاءه عمر بن الخطاب يقول له: «تألف الناس وارفق بهم» فصرخ في وجهه: «أجبار في الجاهلية خوار في الاسلام! رجوت نصرك فجئتني بخذلانك!»[(١)].

---

(١) رواه الإسماعيلي كما في كنز العمال (٦/ ٨٢٥)، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٧٧) بدون قوله: رجوت نصرك....

ولك أن تتصور شجاعة رجل يقف لعمر ويصرخ في وجهه ينبزه بالخَوَر! وعمر هو عمر في شجاعته، وسطوته وهيبته!!

يا من رأى عمرا تكسوهُ بردتُهُ يهتزُّ كسرى على كرسيِّه فَرَقاً
والزيتُ أُدْمٌ له والكوخُ مأواهُ من بأسِهِ وملوكُ الرومِ تخشاهُ

ثم تفكر في مدى صلابته ورباطة جأشه وثبات قلبه، وقد اجتمع حوله الصحابة رضي الله عنهم يرجونه أن يلين فيوافقهم على إرجاع جيش أسامة ليستعينوا به في القتال، ويذكرون له حراجة الموقف وتغير الظرف فما يزيدونه إلا عزماً ومضاءً! ويقسم أنه لن يحل عقدة عقدها رسول اللَّه بيده ولن يرجع جيش أسامة مهما كلفه الأمر من تضحيات.

رجل بلغ في الإيمان مداه! وفي الشجاعة مداها!

أخرج البزار في مسنده عن علي رضي الله عنه أنه قال: أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت. قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس. قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر، إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم عريشاً فقلنا: من يكون مع رسول اللَّه لئلا يهوي إليه أحد من المشركين فواللَّه ما دنا منا أحد إلا أبا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه فهو أشجع الناس. ولقد رأيت رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وأخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ فواللَّه ما دنا منا أحد إلا أبا بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللَّه؟! ثم رفع علي بردة كانت عليه ثم بكى حتى اخضلت لحيته ثم قال: أنشدكم اللَّه، أمؤمن آل

فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم فقال: ألا تجيبوني؟ فو اللّه لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون! ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[١].

المظهر الثالث: الإنفاق والكرم:

الشجاعة والكرم توأمان مقترنان، فكل شجاع كريم وكل كريم شجاع سجية.

لقد كان أبو بكر متميزاً في إنفاقه وكرمه، حتى لقد جعل القرآن الكريم من إنفاقه وكرمه علامة ونقطة تدل عليه فقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ١٨] ، وقال تعالى قبلها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧] فأول صفة له وعلامة عليه الإعطاء والكرم.

أخرج الحاكم وابن أبي حاتم والبزار في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ وما بعدها: أعتق أبو بكر الصِّدِّيق سبعة كلهم يعذَّب في اللَّه تعالى منهم بلال وعامر بن فهيرة، ومنهم بعض نساء أسلمن فكن يعذبن على إسلامهن فقال له أبوه أبو قحافة: أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك أعتقت رجالًا جلداً يمنعونك ويقومون ويدفعون عنك دونك؟ فقال: يا أبت إني إنما أريد ما عند اللَّه فنزلت في أبي بكر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيات إلى آخر السورة[٢].

---

(١) رواه البزار في مسنده (٣/ ١٤) حديث (٧٦١)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٤٤): رواه البزار وفيه من لم أعرفه.

(٢) رواه ابن اسحق كما في السيرة النبوية (٢/ ١٦٠) عن عامر بن عبد اللّه بن الزبير عن =

لقد أنفق الصِّدِّيق أمواله وسخَّر تجارته في مكة في سبيل اللَّه حتى لم يبق له يوم الهجرة من رأس ماله البالغ أربعين ألفاً في أول دخوله الإسلام وأرباحه معه إلا خمسة آلاف أخذها معه وما أبقى لأهله درهماً!

ومن مواقف كرمه وإنفاقه المشهودة ما كان منه عند تجهيز جيش العسرة المتوجِّه إلى تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول اللَّه ﷺ، إذ أنفق يومها أبو بكر ماله كله! حتى قال له رسول اللَّه ﷺ: «ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر»؟ فأجابه: أبقيت لهم اللَّه ورسوله[(١)]!!

وشهد له النبي ﷺ فقال: «ما نفعني مال كما نفعني مال أبي بكر»[(٢)].

التجلي الثاني لخصائص الصِّدِّيق في آية الغار تفرده بالمعية الخاصة:

إن قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] هو حكاية لقول النبي ﷺ خطاباً لأبي بكر. وقد روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن أنس قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين قلت: يا رسول اللَّه لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا. قال: «**ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما؟!**»[(٣)].

= بعض أهله، ومن طريقه: الطبري في التفسير (٢٤/ ٤٧١) إلا أنه جعله من مراسيل عامر، والحاكم في المستدرك(٢/ ٥٧٢) حديث (٣٩٤٢) إلا أن عامراً صرح عند الحاكم بالراوي عنه وهو أبوه عبد اللَّه بن الزبير.

(١) رواه الترمذي حديث (٣٦٧٥) وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) رواه الترمذي ح(٣٦٦١) وابن ماجه ح (٩٤) وأحمد ح (٧٤٣٩) وصححه الشيخ الألباني.

(٣) رواه البخاري كتاب التفسير، سورة براءة، باب قوله تعالى: حديث(٤٦٦٣)، ومسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي بكر الصِّدِّيق، حديث(٢٣٨١) واللفظ للبخاري.

والآية تصدق الرواية، والرواية تشرح الآية. وكلاهما من مشكاة واحدة.

والناظر المتأمل يجد إخباراً من النبي ﷺ موثقاً من اللَّه تبارك وتعالى بأن القائل- وهو رسول اللَّه- و«صاحبه» - وهو أبو بكر- محفوفان جميعاً بمعية اللَّه، وأن اللَّه تعالى معهما: يحفظهما ويكلأهما ويدفع عنهما كيد الكائدين وغائلة المشركين.

وهذا التعبير السماوي عن المعية لم نجد له شبيهاً في القرآن الكريم ولم يرد لاثنين بخصوصهما إلا لمحمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ، وإلا لموسى وهارون عليهما السلام.

والأمر يحتاج منا إلى وقفة مناسبة نبسط فيها الكلام عن حقيقة هذه المعية وأنواعها أولًا، وعن تجليات آثارها ثانياً.

المعيَّة وأنواعها:

فالعامة كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. وهذه شاملة لجميع الخلق: مؤمنهم وكافرهم. وهي معية العلم وما في معناه. ولا فضل فيها لأحد.

إنما الفضل في المعية الخاصة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وهي معية التأييد والحب والرعاية والحفظ.

وهناك معيَّة أخص، فهي أدل على الفضل من المعية الخاصة؛ لأن الفضل كلما كان أخص كان أدل على أفضلية من اختص به على غيره، كما لو كرّم

الأمير جيشه المنتصر، ثم كرم قائد الجيش تكريماً خاصاً وأشرك معه في هذا التكريم جندياً آخر واحداً معه فهذا دليل على تميز ذلك الجندي، وإلا لما قرنه الأمير بالقائد وخصهما معاً بالتكريم دون الآخرين.

فقوله تعالى توثيقاً لما أخبر به نبيُّه صلى الله عليه وآله وسلم صاحبَه أبا بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] لا يدخل فيه أحد سواهما. إن هذه المعية كانت لاثنين فقط هما النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه؛ فهو أفضل الأمة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وأولاهم بالإمامة ومنصب الخلافة، كذلك فإن هذه المعية هي معية لذاته رضي الله عنه غير مرتبطة أو معللة بصفة أو سبب. وهذه أبلغ مما لو كانت معلقة على صفة معينة.

معية اللَّه لموسى عليه السلام دون قومه:

لقد تعرض موسى عليه السلام وقومه إلى موقف عصيب مشابه لموقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه رضي الله عنه في الغار، لقد طاردهم فرعون وجنوده حتى حصروهم أمام البحر وألجأوهم إليه فلم يكن لهم من منفذ! ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء: ٦١].

الموقف واحد والصورة متشابهة: هنا موسى وقومه محصورون أمام البحر، وحولهم فرعون وجنوده، وهناك محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه محصوران في الغار، وأبو جهل وجنوده محيطون بهما.

لكن.. تأمل كيف عبر القرآن عن كل من الموقفين؟ وكيف رسم كلًا من الصورتين؟!

لقد استعمل مع موسى عليه السلام لفظ: «أصحاب موسى» ومع محمد صلى الله عليه وآله وسلم

لفظ «صاحبه». و«صاحب» محمد ﷺ هادئ النفس مطمئن الضمير سوى أنه حزين أو يقارب أن يكون كذلك، فيواسيه صاحبه رسول اللّه ﷺ ويخفف من حزنه قائلًا: «لا تحزن إن اللّه معنا». أما «أصحاب موسى» فكانوا خائفين هلعين آيسين لا أمل عندهم في النجاة: «إنا لمدركون»! فيجيبهم صاحبهم: «كلا إن معي ربي سيهدين».

انظر! لقد قال موسى عليه السلام «معي» ولم يقل: «معنا» كما قال النبي ﷺ لصاحبه: «إن اللّه معنا»، فنجاة أصحاب موسى لا لأن اللّه معهم، وإنما إكراماً لموسى عليه السلام وتبعاً له، بينما كانت نجاة الصِّدِّيق رضي الله عنه صاحب النبي ﷺ بالمعية الإلهية لا بالتبعية النبوية فقط! فاللّه مع النبي ﷺ وصاحبه، بينما هو مع موسى عليه السلام دون أصحابه.

وتأمل كيف أن «معية» موسى عليه السلام تقدم فيها ذكر ما للنفس على ذكر الرب: «معي ربي»!«ومعية» محمد ﷺ و«صاحبه» تقدم فيها ذكر اللّه على ما للنفس: «اللّه معنا». وهذا أقرب للطمأنينة والثقة واليقين والتعلق الخالص من كل حظ للنفس وإن كان مطلوباً مشروعاً.

والنظم على كل حال أبلغ وأدل على الفضل، والنبي ﷺ و«صاحبه» يشتركان فيه!

بين الحزن والخوف:

لم يرد في الآية الكريمة أن أبا بكر رضي الله عنه كان خائفاً رغم أن الموقف موقف خوف أكثر منه موقف حزن، وإنما ورد فيها ذكر الحزن، والحزن غير الخوف الحزن على أمر واقع، والخوف من أمر متوقع، فما يقال من

أن أبا بكر رضي الله عنه كان خائفاً مضطرباً لا أصل له، ولا دليل عليه سوى الدعوى العارية.

وحتى لو افترضنا أن التعبير جاء بلفظ«لا تخف» دون «لا تحزن» فليس في ذلك من عيب أو قدح لأسباب عديدة منها:

١- إن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصاحبه: لا تحزن إن اللّه معنا لا يبقي للخوف قدحاً ما دام أن اللّه مع الخائف. فيكون كقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [طه: ٤٦].

٢- إن الخوف انفعال نفسي طبيعي لا عيب فيه لذاته، وإنما يذم إذا زاد عن حده، أو اقترن به ما يشين، وإلا فكل إنسان يخاف حتى الأنبياء عليهم السلام كما أخبر اللّه تعالى عن موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، وغيرها من الآيات، وكما خاطبت الملائكة لوطاً عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

٣ – إن صيغة النهي لا تستلزم وقوع المنهي عنه إلا بدليل منفصل. وذلك كقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وكما توصي ابنك تقول: لا تكذب، لا تسرق الخ. فهذا مجرد تحذير لا يستلزم وقوع المنهي عنه وهو الكذب والسرقة..الخ. بل هو أدعى لعدمه.

فلو افترضنا أن النص جاء هكذا: (لا تخف إن اللّه معنا) لما دل على

تحقق وقوع الخوف، فكيف ولا ذكر للخوف فيه! إنما هو الحزن! وهو كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

عريش بدر:

وتفرد الصِّدِّيق بصحبة النبي ﷺ في هذا الموقف العصيب- غار ثور-، هو كتفرده بصحبته في عريش بدر، وقد اختاره ﷺ من بين جميع أصحابه وفيهم عمر وعلي والزبير وغيرهم من الصناديد، فلم يكن معه غيره فيه!

نزول السكينة والتأييد:

ومن العنت- بعدُ- البحث عن منافذ للتخلص من قبضة سلطان الآية والتفلت من أحكامها، كالقول بأن نزول السكينة والتأييد جاء بضمير الإفراد فلا يشمل أبا بكر؛ فإنه عاطل عن الدليل، بله الذوق اللغوي العربي.

إن كلام الرب لا يتناقض!

إنه- سبحانه- أكد إخبار النبي ﷺ لصاحبه بأن اللَّه معهما جميعا، والمعية هنا إن لم تكن معية الحفظ والسكينة والتأييد فلا معنى لها، ولا علاقة لها بنفي الحزن، وعلى هذا فلا يعقل أن يكون ما بعدها نافياً لما قبلها وإلا حصل التناقض، وهو مستحيل في كلام الرب جل وعلا، وكذلك يكون النبي ﷺ- وحاشاه- كاذباً في الإخبار، وهو ممتنع أيضا، أو يكون كلاهما قد استعمل «التقية»، والقول بذلك سخف وكفر! فلم يبق إلا تصديق النبي ﷺ في إخباره أن اللَّه تعالى مع أبي بكر رضي الله عنه كما هو معه، فالسكينة والتأييد لكليهما معاً لأن اللَّه معهما جميعاً.

هذا من حيث الإجمال.

أما من حيث التفصيل فنقول: إن المقصود بكلام الرب أصلًا هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس أبا بكر؛ فقد بدأ الكلام هكذا: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بضمير الإفراد، فلا بد أن ينتهي كذلك بضمير الإفراد، وهكذا كان: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أما ذكر أبي بكر رضي الله عنه فقد جاء معترضاً في وسط العبارة من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس من أصل كلام الرب، إنما حكاه اللَّه عنه حكاية بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فلما انتهى الكلام المعترض المحكي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اتصل كلام الرب، فكان بالإفراد كما بدأ بالإفراد ليتسق الكلام، وإلا خرج عن مقتضى البلاغة وكان في الكلام زيادة -وهو ضمير التثنية- لا تأتي بفائدة؛ إذ شمول الصاحب بما يكرم اللَّه به صاحبه محسوم سلفاً بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾فهو معه في كل شيء، وكما أنه شاركه في المخاطر والغرم فهو شريكه في المكارم والغنم؛ فلا داعي للإتيان بضمير التثنية لأداء هذا المعنى، فكان التعبير بضمير الإفراد لدلالة ما قبله عليه، وما لا داعي له ولا فائدة منه زيادة لا محل لها في كلام الرب جل وعلا.

آثار المعيَّة وتجلياتها:

المعية والتفرد بالفضائل «الخصائص»:

إن أفضلية الصِّدِّيق رضي الله عنه على بقية الصحابة رضي الله عنهم لا تتجلى في تفوقه عليهم عند المقارنة فحسب، وإنما تتجلى حقاً حين تلاحظ من زاوية أخرى أجلّ وأسمى ألا وهي: اقترانه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومشاركته المتفردة له في

«المعية الإلهية».

وتأمل لفظ «ثاني اثنين» في الآية: إنه ينطبق على أبي بكر رضي الله عنه فهو ثاني اثنين، وكذلك على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو ثاني اثنين، وهذا كما قال تعالى عن نفسه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، أي هو واحد من أربعة، لا أنه - سبحانه - الرابع ترتيباً.

فأبو بكر رضي الله عنه واحد من اثنين خصهما اللَّه تعالى بمعيته، فهو الأول على الصحابة رضي الله عنهم والمقدم فيهم لا لسبقه إياهم - وإن كان هذا حاصلًا تحصيلًا - وإنما لكونه الثاني بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، هذه هي علة التقديم، أما سبقه الصحابة فهو - كما أسلفت - تحصيل حاصل.

ولما كان أبو بكر رضي الله عنه كذلك - أي أنه الثاني بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة - فهو الأول تلقائياً في غيابه صلى الله عليه وآله وسلم، دون النظر إلى الغير كائناً من كان! وهذا ملحظ دقيق، وفرق عظيم!!

إن مثل أبي بكر وأفضليته على الأصحاب كمثل إمامين في مسجد واحد، أما أحدهما فهو الإمام الأصيل المقدم لعلمه وأهليته، وأما الثاني فهو وكيله الذي يأتي بعده في المرتبة والتقديم، فحيثما غاب الإمام الأول كان من المتسالم عليه بين المصلين أن الإمام الآخر هو الذي ينوب عنه بلا منازع، نعم لو غاب كلاهما رجعوا إلى أصول الترجيح في تقديم الإمام للصلاة.

إن أولية الثاني عند غياب الأول لا تلحظ من حيث المقارنة ببقية المصلين.. وإنما من حيث كونه الثاني أوالوكيل عن الإمام الأول.

وهكذا كان الأمر مع أبي بكر رضي الله عنه في أفضليته وإمامته، وهي منزلة لم تتأتَّ لأحد غيره من الصحابة! لقد كان خيرة الأصحاب بعد الصِّدِّيق- أي عمر بن الخطاب رضي الله عنه - يجهد نفسه- وأبو بكر لا يدري- يحاول سبقه لكنه يجد نفسه وراءه في نهاية المضمار! وعمر هو القائل: «ما استبقنا إلى خير إلا سبقني إليه أبو بكر»(١).

ولا شك أن رجلًا يسبق الآخرين دون أن يدري أنه في سباق أو أن أحداً يسابقه يكون متفرداً في البطولة والسبق! هذا حال أبي بكر في السبق إلى الخيرات والحرص على المكرمات.

نائب النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

ولذلك كان رضي الله عنه ينوب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل موقف مهم بلا منازع.

وأعظم موقفين مهمين تقدم فيهما الصِّدِّيق عند غياب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته هما الحج والصلاة، ثم ناب عنه في أداء الزكاة بعد الوفاة.

معالم تجلي آثار المعية:

المعلم الأول: نيابته في الحج عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

ففي السنة التاسعة لم يحج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأناب عنه أبا بكر يحج بالناس، ولم تكن في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا حجتان تأمَّر على إحداهما أبو بكر، وعلى الأخرى رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما ذهب علي بسورة براءة بعد نزولها خلف أبي بكر تابعاً ومأموراً يحج بحجه ويصلي بصلاته، وليس له إلا قراءة

(١) رواه أحمد في مسنده ح(٣٦٦٢، ٤١٦٥، ٤٣٤٠) وصححه الشيخ شعيب بشواهده.

المنشور الإلهي، يساعده في ذلك أبو هريرة ورهط من الصحابة[١]. وكان فيه حل بعض العقود وإتمام بعضها، والعرب من عادتهم أن لا يحل العقود ولا يعقدها إلا الأمير، أو واحد من أهل بيته، وعلى كل حال فقد كان أبو بكر هو الأمير.

المعلم الثاني: صلاته بالناس في مرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

ولما مرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم أناب عنه أبا بكر رضي الله عنه يصلي بالناس، والصحابة جميعاً متوافرون وفيهم علي وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولما تقدم عمر رضي الله عنه في أحد الأوقات - وكان الصِّدِّيق غائباً- وسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم صوته يصلي بالناس صرخ غاضباً يسمع الناس: «فأين أبو بكر؟! يأبى اللَّه ذلك والمسلمون، يأبى اللَّه ذلك والمسلمون»[٢].

المعلم الثالث: إلزامه الناس بأداء الزكاة:

وهذه سيأتي الكلام عنها.

المعلم الرابع: البيعة المتفردة وعدم حاجتها إلى نص أو تعيين:

ولما توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت بيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة وتقدُّمه فيها كتقدُّمه في الحج والصلاة، وكل شيء في حياته.

إن بيعة الصِّدِّيق أوضح من أن تحتاج إلى نص أو وصية أو كتاب، هذه كلها لا يحتاجها أبو بكر فهو أكبر من أن يكون في حاجة إلى مثل ذلك! وإن

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير سورة براءة، باب قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ حديث(٤٦٥٥)، ومسلم كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، حديث (١٣٤٧).

(٢) رواه أحمد حديث(١٨٩٢٦) وأبو داود (٤٦٦٠)، وصححه الشيخ الألباني.

كان ﷺ أراد أن يعهد إليه ويكتب في ذلك كتاباً إلا أنه تراجع عن ذلك حين رأى أنه لا حاجة إليه. وعبر عن ذلك بقوله: «يأبى اللَّه والمؤمنون إلا أبا بكر»(١). وكان قبلها قد حصل لغط ومراجعات في شأن الكتاب، فقال النبي ﷺ: «قوموا عني»(٢) وترك الأمر لعدم أهميته. ولو كان ضرورياً وتتوقف عليه مصلحة للأمة لا يضمن النبي ﷺ حصولها بدونه لما تركه، فإنه ﷺ معصوم عن ذلك.

إن المؤمنين يعلمون أن أبا بكر رضي الله عنه هو الأولى بمنصب الخلافة، ويأبون أن يتولى عليهم- في وجوده- غيره، ولا يحتاج علم ذلك إلى كتاب أو أدلة ترجيح؛ لأن تقدُّم الإمام الثاني في غياب الإمام الاول أمر مفروغ منه بلا كتاب ولا حساب.

لذلك قال عمر رضي الله عنه وهو يحكي اجتماعهم للبيعة في السقيفة المباركة وقد قال أبو بكر: «وإني أرضى لكم أحد هذين الرجلين - أي عمر وأبا عبيدة-: «فلم أكره مما قال إلا هذه الكلمة، فلأن أقدم فيضرب عنقي في غير معصية اللَّه أحب إلي من أن أتقدم على قوم فيهم أبو بكر»(٣).

ويقول: «ليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر! من بايع رجلا

(١) متفق عليه، رواه البخاري كتاب المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول ح(٥٦٦٦)، ومسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي بكر الصِّدِّيق ح(٢٣٨٧) عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري كتاب العلم، باب كتابة العلم، ح(١١٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري كتاب المحاربين، باب رجم الحلبي في الزنا، ح(٦٨٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا»[(١)]
أي أن بيعة أبي بكر متفردة لا يقاس عليها، وذلك لتفرد صاحبها فلا يقاس عليه لانعدام النظير، والقياس مع الفارق لا يصح.

وأما قول عمر: «إن بيعة أبي بكر فلتة وقى اللَّه شرها» فقد جاءت في معرض الرد على من قال ذلك؛ فقد قال عمر: «بلغني أن قائلًا منكم يقول: واللَّه لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترن امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن اللَّه وقى شرّها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر»[(٢)]. ومعنى «فلتة» أنها تمت من دون تحضير في ظرف طارئ غير محسوب، رسم صيغتها هذا الظرف الطارئ العاجل بلا تخطيط مسبق يقتضي اجتماع أهل الحل والعقد جميعهم، وإلا حسم الأمر وسارت الريح بما لا تشتهي السفن.

ولا يعقل أن عمر أراد من ذلك الذم، فالتعلق بهذه الكلمة - دون تفسيرها بما يتلاءم وسياق الحال والمقال- تعلق الغريق بالقشة، وتمسك المفلس بِكِسَرِ النقود!.

---

(١) رواه البخاري كتاب المحاربين، باب رجم الحلبي في الزنا، ح(٦٨٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وتغرة: كراهة وحذراً.

(٢) رواه البخاري كتاب المحاربين، باب رجم الحلبي في الزنا، ح(٦٨٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

التجلي الثالث لخصائص الصِّدِّيق في آية الغار:

تفرده بوصف «ثاني اثنين»:

وهو من تجليات المعية له وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة أيضاً.

إن قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ وإن جاء في سياق الآية مقصوداً به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن مقتضى اللغة يجعله منطبقاً على أبي بكر أيضاً، لأن العرب إذا قالوا: ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة أو سابع سبعة لا يقصدون واحداً بعينه، وإنما القصد واحد من اثنين وواحد من ثلاثة.. الخ، أي إن كل واحد منهم ثاني اثنين وثالث ثلاثة.. الخ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الغار كان ثاني اثنين، وأبو بكر ثاني اثنين كذلك، ولا شك أن ترتيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حيث المنزلة يأتي أولاً، فأبو بكر ثاني اثنين لفظاً ومعنى.

تجليات «ثاني اثنين»:

وقد تجلى كون الصِّدِّيق ثاني اثنين بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في مواطن كثيرة منها:

١ - **ثاني اثنين في معية اللّه تعالى.**

٢ - **ثاني اثنين في الإيمان**: إذ هو أول من آمن «من الرجال».

٣ - **ثاني اثنين في الدعوة إلى اللّه**: إذ هو أول من دعا إلى اللّه بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاهتدى بدعوته خيرة رجالات الإسلام وأعمدته التي قام عليها، ومنهم:

عثمان بن عفان: ذو النورين الذي ساهم في قيام الإسلام بأمواله وجهاده.

وعبد الرحمن بن عوف: ظهير عثمان في الإنفاق والجهاد.

وسعد بن أبي وقاص: الذي كان يلقب بالأسد عادياً خال رسول اللَّه ﷺ، وأول من رمى بسهم، وأول من أراق دماً من مشرك في سبيل اللَّه، بطل القادسية وفاتح العراق ومحرره من الاستعمار الفارسي الذي دام ألفا ومائة وخمسة وسبعين عاماً، مبيد الأكاسرة وهازمهم.

وطلحة بن عبيد اللَّه: الذي كان يلقب بطلحة الخير وطلحة الجود لكرمه، وكان من الشجعان المعدودين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللَّه.

والزبير بن العوام: حواري رسول اللَّه ﷺ وابن عمته، كان يعد بألف فارس لشجاعته وبلائه في الحروب! وهؤلاء مع علي هم أهل الحل والعقد في الأمة وأعضاء مجلس الشورى الذي عينه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لاختيار الخليفة من بعده، مما يدل على حسن اختيار الصِّدِّيق وبعد نظره في معرفة الرجال.

كما أسلم على يديه كثير من مشاهير الإسلام وصفوتهم **كأبي سلمة وخالد ابن سعيد وعثمان بن مظعون**.

وهو أول من خطب في المشركين يدعو إلى اللَّه تعالى بعد خطبة النبي ﷺ على الصفا، إذ دخل هو ورسول اللَّه ﷺ الكعبة فقام أبو بكر فيها خطيباً

٤ - **وثاني اثنين في الغار** وهو أحرج موقف تعرض له رسول اللَّه ﷺ وأخطره.

يقول فيه حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعّد الجبلا

وكان حِب رسول اللَّه قد علموا   من البرية لم يعدل به رجلا

فروي عن النبي ﷺ أنه ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: صدقت يا حسان هو كما قلت[١].

٥ - وثاني اثنين في صحبة النبي ﷺ في الهجرة والتعرض لمخاطرها.

٦ - وثاني اثنين في عريش بدر.

٧ - وثاني اثنين في المشورة والرأي والمداولة في أمور الأمة.

٨ - وثاني اثنين في صحبة النبي ﷺ في ذهابه وإيابه.

٩ - وثاني اثنين في الصلاة: حيث كان هو المقدَّم إذا غاب رسول اللَّه ﷺ.

ومن ذلك ما كان في مرض وفاته ﷺ، إذ قدمه رسول اللَّه ﷺ يصلي بالناس بضعة أيام لم يرض غيره إماماً حتى ولو كان عمر!

وكان آخر ما ودع به ﷺ أُمته أن نظر إلى صفوفهم في الصلاة وهم يؤدونها خلف إمامهم أبي بكر فجر اليوم الذي قبض فيه -بأبي هو وأمي- ومن فرحه ابتسم ابتسامة عريضة رضاءً بما يرى، حتى كاد أن يفتتن المسلمون عن صلاتهم من شدة فرحهم، ظناً منهم أن رسول اللَّه ﷺ قد تماثل للشفاء!

لقد سَرَّت إمامة أبي بكر الصِّدِّيق رسول اللَّه ﷺ وفرح له حتى ابتسم وأشرق وجهه بالبشر، فكيف تغيظ مسلماً يؤمن باللَّه واليوم الآخر ويضيق

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٧٤) عن الزهري مرسلًا، ورواه في مستدركه (٣/ ٦٧) حديث (٤٤١٣)، وفيه عمرو بن زياد يضع الحديث كا قال الذهبي في التلخيص.

لها صدره ويتمعر وجهه!![١].

١٠ - وثاني اثنين في الزكاة: يوم أن امتنعت عن أدائها قبائل الجزيرة بعد وفاة النبي ﷺ، فحلف أبو بكر: «لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة» وبرَّ بقسمه، فكان الرجل الذي يقول ويفعل، وكان أحق الناس بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وكان مسيلمة الكذاب قد اختصر الصلوات الخمس إلى ثلاث مهراً لسجاح، فأعادها أبو بكر الصِّدِّيق إلى ما كانت عليه، وتأمل التقابل بين «الكذاب» و«الصِّدِّيق» وكيف سلط اللَّه صديق الأمة على كذابها!

وارتدت بعض القبائل عن إقامة الصلاة فأرجعهم إلى إقامتها، ونشر الصلاة والزكاة قي ربوع الأرض التي كانت تحت سيطرة فارس والروم.

١١ - وثاني اثنين في الحج: إذ أمّره النبي ﷺ على الحجيج في السنة التاسعة، وهي الحجة الوحيدة قبل حجة الوداع، كما مر بنا سابقاً، وهكذا كان أبو بكر ثاني اثنين في أعظم أركان الإيمان والإسلام.

(١) روى البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩) عن أنس بن مالك أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول اللَّه ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة كشف رسول اللَّه ﷺ ستر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم رسول اللَّه ﷺ ضاحكاً. قال: فبهتنا ونحن في الصلاة من فرح بخروج رسول اللَّه ﷺ، ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول اللَّه ﷺ خارج للصلاة. فأشار إليهم رسول اللَّه ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم. قال: ثم دخل رسول اللَّه ﷺ فأرخى الستر. قال: فتوفي رسول اللَّه ﷺ من يومه ذلك.

١٢ - وثاني اثنين في القرآن: وهذه من أعظم خصائص الصِّدِّيق ومناقبه التي أفرده اللَّه بها! يفوز بشرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧] فكان الذي قرأ القرآن وبلغه وكتبه رسول اللَّه ﷺ، وكان الذي جمعه في مصحف واحد مرتباً بين دفتين أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، إذ كان الجمع متعذراً في عهد أولهما ﷺ لعدم اكتمال القرآن ونزوله مفرقاً لا مرتباً، فلما اكتمل آخر حياته قام بهذا العمل خليفته من بعده، ولا شك أن اللَّه تعالى لا يوفق لكرامة هذا الإنجاز العظيم إلا المصطفَين الأخيار والمقربين من الأبرار.

١٣ - وثاني اثنين في قيادة الأمة: فكان «خليفة رسول اللَّه ﷺ» وتفرد بهذا اللقب فلم يسم به أحد من الخلفاء، وهو من موافقات القدر!

وكان الصِّدِّيق أحقهم به لكمال متابعته لنبيه ﷺ وسيره الكامل على نهجه.

وسمي غيره بـ«أمير المؤمنين» وهو لقب مشترك وليس مختصاً بأحد كلقب الصِّدِّيق.

١٤ - وثاني اثنين في دعوة العرب وجهادهم وإدخالهم أو إرجاعهم إلى الإسلام الكامل الصحيح، إذ جاهدهم النبي ﷺ كافرين مشركين وجاهدهم الصِّدِّيق رضي الله عنه مرتدين أو زائغين.

١٥ - وثاني اثنين في جهاد العالمين: فأول من خرجت جيوشه إلى خارج الجزيرة العربية رسول اللَّه ﷺ في مؤتة وتبوك، وعقد الراية آخر حياته لأسامة بن زيد رضي الله عنه فأنفذه الصِّدِّيق، ثم توالت من بعد جيوشه تضرب فارس والروم.

١٦ - وثاني اثنين في الصدق والتصديق: وهي صفة اشتهر بها في الجاهلية فكان يسمى- كرسول اللَّه ﷺ- بـ«الصادق» ووصفه ابن الدغنة - وهو أحد شيوخ قبائل العرب - لما رآه عازماً على الخروج إلى الحبشة فقال: «ما مثلك يا أبا بكر يخرج، إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر»[(١)].

فوصفه بالصفات التي نفسها التي وصفت بها خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول اللَّه ﷺ أول عهده بالوحي، وأولها الصدق: «إنك لتصدق الحديث »![(٢)] ثم نزلت الآيات في ذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] كما مرَّ بنا.

١٧ - وثاني اثنين في المنزلة بعد رسول اللَّه ﷺ: إذ تفرد بلقب «الصِّدِّيق»، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فكان محمد هو النبي، وأبو بكر هو الصِّدِّيق، ثم يأتي من بعدهم الصحابة ما بين شهيد وصالح.

ولهذا لما كان رسول اللَّه ﷺ مع ثلة من أصحابه على الجبل ورجف بهم قال له: «**اسكن حراء فما عليك إلا نبي أوصديق أوشهيد**» وكان معه أبو بكر

---

(١) رواه البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، حديث(٢٢٩٧)، ولكن بدون لفظ: وتصدق الحديث.

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير، باب تفسير سورة العلق، حديث (٤٩٥٣)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول اللَّه ﷺ، حديث (١٦٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

الصِّدِّيق - ولم يمت شهيداً - وعمر وعثمان وعلي وطلحة وآخرون[1] كلهم ماتوا شهداء!

فأبو بكر أفضل صديق لأفضل نبي في خير أمة، فهو خيرة البشر بعد الأنبياء عليهم السلام فمن أولى منه بإمامة الأمة وقيادتها!

١٨ - وثاني اثنين في التقوى: ففيه وفي رسول اللَّه ﷺ نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣][2]، وهل هناك أتقى ممن جمعه اللَّه تعالى مع نبيه وجعله شريكاً له في تقواه!

وأدل على ذلك قوله تعالى عنه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، فأبو بكر هو الأتقى من بين الأمة، وهو الأكرم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]. وسيأتي لاحقاً - إن شاء اللَّه - مزيد تفصيل في ذلك.

١٩ - وثاني اثنين في الإحسان: وهو أعلى درجات الإيمان، إذ قال تعالى فيه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٤].

٢٠- وثاني اثنين في الجزاء والرضا: قال اللَّه لنبيه ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]. وقال عن «صاحبه»: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل طلحة والزبير، حديث(٢٤١٧)، ورواه البخاري (٣٦٧٥) بلفظ: أثبت أحد . . . ، وليس فيه ذكر طلحة والزبير.

(٢) رواه الطبري في تفسيره عن علي بن أبي طالب ﷺ (٢١/ ٢٩٠)، قال الحافظ في الفتح (٢١/ ١٠٦): سنده لين. وضعفه الشيخ الألباني في الضعيفة (١٠/ ٦٠٢) وقال: فيه عمر ابن إبراهيم بن خالد، قال عنه الدارقطني: كذاب خبيث.

[الليل: ٢١] في آخر قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]. ولم يَعِد اللَّه تعالى أحداً بعينه بذلك سوى نبيه و(صاحبه)، والتعبير عن الوعد واحد. «لسوف ترضى» و«لسوف يرضى».

ولو تدبرنا الآية في الفقرة السابقة (١٩) لوجدنا المشار إليه مشاركاً لرسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم في الجزاء المذكور بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٤ - ٣٥].

٢١- وثاني اثنين في التنويه بالذكر والفضل تشخيصاً في القرآن:

إذ أن كل ما ورد في القرآن الكريم من فضائل في شأن الصحابة رضي الله عنهم جاء بصيغة العموم وليس بصيغة التخصيص التي يفهم منها تشخيص المراد بالذكر دون الحاجة إلى معرفة أسباب النزول، إلا رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم- فهو الأصل والقرآن كله في فضائله- وصاحبه فإن آية الغار قد تواطأت القلوب والعقول على أنها في الصِّدّيق دونما حاجة لأسباب النزول.

أما (زيد) الذي جاء ذكره في سورة «الأحزاب» فقد ورد عرضاً دون إشارة إلى مدح أو ذم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وأما الثلاثة الذين خلفوا وذكروا في سورة (التوبة) فهم قد ارتكبوا ذنباً تابوا منه فتاب اللَّه عليهم، ولا يمكن معرفتهم دون الرجوع إلى روايات أسباب النزول.

٢٢ - وثاني اثنين في «الحديبية»: إذ هو الوحيد من الصحابة رضي الله عنهم الذي تابع المتابعة التامة وكان موافقاً (لصاحبه) في كل شيء دون تلجلج أو تردد أو اعتراض، بل كان منشرح الصدر إيماناً ويقيناً، والجمع المؤمن كله مغموم مكروب، وفيهم عمر وعلي الذي رفض أن يمحو من كتاب الصلح كلمة «رسول اللّه» رغم أن الذي أمره بمحوها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، فاضطر إلى محوها بيده الشريفة بعد أن دله عليها!

وعمر يقول: يا نبي اللّه ألست نبي اللّه حقاً؟ فيجيبه صلى الله عليه وآله وسلم: «بلى يا عمر»، قال: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «يا عمر إني رسول اللّه ولست أعصيه وهو ناصري» ويذهب إلى أبي بكر - والموقف عصيب - ليلقي عليه الأسئلة نفسها. . ويتلقى الأجوبة نفسها التي سمعها من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم! يقول عمر: فأخذ أبو بكر بيدي وجذبها في قوة وقال لي: «أيها الرجل إنه رسول اللّه ولن يعصيه وإن اللّه ناصره فاستمسك بغرزه فواللّه إنه على الحق»[1] فأنزل اللّه السكينة على قلبي وعلمت أنه الحق.

٢٣ - وثاني اثنين في المطاعن: فإن أعظم مطعن وُجه إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كان في عرضه وزوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وعائشة هي ابنة أبي بكر؛ فكان أبو بكر ثاني اثنين في أعظم المطاعن!

٢٤ - وثاني اثنين في المخاطر: التي تعرض لها بيته يوم الهجرة، إذ كان الكفار يترددون بين بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبيت أبي بكر رضي الله عنه، حتى أن أبا جهل

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، حديث (٢٧٣١-٢٧٣٢).

ضرب ابنته أسماء رضي الله عنها فأطار قرطها من أذنها وأدمى وجهها![١] وكان يمكن لبيته أن يتعرض للمحو والاجتثاث!

٢٥ - وثاني اثنين في الدفن بجوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان قبره بجوار قبر «صاحبه»، وكان ملازماً له بعد مماته كما كان في حياته وتفرد أبو بكر بـ «الصحبة» وفاز بها حياً وميتا!!

أما قبر عمر رضي الله عنه الصاحب الثاني فكان إلى جوار قبر أبي بكر رضي الله عنه .

التجلي الرابع لخصائص الصِّدِّيق في آية الغار

تفرده بمواساة النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

وذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم الثابت قطعاً في القرآن الكريم: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وهذه من خصائص الصِّدِّيق رضي الله عنه حتى كأن اللَّه تعالى هو المواسي.

وهي من جنس مواساة اللَّه لرسوله في قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] ، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس: ٧٦] ، وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ومواساة المؤمنين بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. مواساة المؤمنين عامة، بينما مواساة اللَّه لصاحب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم خاصة.

---

(١) القصة رواها ابن اسحق كما في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٨٧)، ومن طريق ابن اسحق، رواها الطبري في التاريخ (١/ ٥٧٠) وسندها منقطع.

ومن جنس مواساة اللَّه تعالى لأم موسى وتطمينها بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] . ومواساة عيسى عليه السلام لأمه: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. فكيف بمن كان العلي الأعلى معه؟!

ومواساة الملائكة لنبي اللَّه لوط عليه السلام: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [العنبكوت: ٣٣]، وتطمينهم للمؤمنين عند الموت كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

* * *

الخاتمة

وبعد:

فيما سبق كان عبارة عن ومضات ولمحات، استشففناها من آية واحدة نزلت في فضل الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فنرجو أن نكون قد وُفِّقنا في العرض، وما قصدنا من بحثنا هذا إلا بيان فضل الصِّدِّيق والتذكير بصنائعه حتى لا تهون مكانته ولا تنحسر منزلته، وحتى نعذر إلى اللَّه ولا نترك الساحة فارغة لغربان الشوم ودواهي البوم الذين ينعتون بالليل والنهار مسيئين إلى أصحاب النبي المختار، فرضي اللَّه عنك يا صِّدِّيق الأمة، وألحقنا بك في جنته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.